إن المشهد الغريب على ضفة الماء قد وصفه «ماني» بنفسه. ففي نظره كما في نظر من سيُدْعَوْنَ يوماً «المانويّين» فإنه يسجّل بداية «الوحي» إليه. فهكذا تولد المُعْتَقَدات كما يقول بعضهم: انزلاق الخيال عند منعطف سنّ البلوغ؛ لقاء مع المرأة، المرأة المحرَّمة؛ وإذا الرغبة تطفح...

بلا ريب. ولقد كان «ماني» بحاجة إلى تأمُّل ذاته في مرآة الطفل هذه ليعيد لصق قِطع ذاكرته المهشَّمة. فالحقيقة بشأن مولده، بشأن قدومه إلى بستان النخيل، إنما كان يحدس بها، وكان قد جمع أجزاء منها، غير أنه لم يكن يجرؤ على وضع كلّ منها بحذاء الآخر؛ وقد انبغى أن يُقْبِل ذلك «الصوت» فيناديه «ابن پاتيغ»؛ وانبغى أن يسمع من فم «التجلّي» اسم «مريم».

«في الثانية عشرة من العمر علمت في نهاية الأمر مَنِ المرأة التي حملت بي وولدتني، وكيف تكوَّنتُ في هذا الجسد المكوَّن من لحم، ومنه كان بذار الحبّ الذي بعثني حيّاً».

تلكم هي أقوال «ماني» التي نقلها بعد ذلك بأعوام حواريّوه.

ومع أنه كان ابن عصره فقد نظر إلى هذه الأمور نظرة ساذجة ومُفْعَمَة بالحميّة. فالصورة التي رآها، أو ظنّ أنه رآها، ذلك الوميض الراسي على صفحة الماء، يسمّيها في كتبه «تَوْأَمي»، «صِنْوي»، ويتحدّث عنها وكأنه يتحدّث عن رفيق حقيقي. وإنه لرفيقٌ تعاسةٍ بالنسبة إلى المراهق المتمرِّد. وحليفٌ عزيز جداً على الأخصّ في مواجهة «أصحاب الملابس البيضاء ومعتقداتهم ومحظوراتهم.

وهكذا فإنه في اليوم الذي تمّ فيه ذلك اللقاء الأول، يوم أفزعه التجلّي على الرغم من كل شيء، أراد التكفير عن رسمه على الجدارِ وجهَ الإلّه «ميترا فسمع من فم «التوْأم» الردّ الذي كان يرجوه:.

«ارسم ما حلا لك يا «ماني»، فـ «الذي» أرسلني لا منافس له، وكلّ جمال يعكس جمالَه «هو».